تاريخ الثورة الفرنسية (لميشليه)

بقلم الأستاذ على أدهم

مقدمة :

كان للأفكار التى سادت فى القرن الثامن عشر أقوى تأثير فى قيام الثورة الفرنسية ، وقد تحرت الثورة ازالة تحكم السلطة المطلقة ، وعملت على ايجاد سلم تؤيده روح انسانية عالمية ، ودعت الى الحرية والاخاء والمساواة بين البشر ، ولكن سرعان ما انحرف بها عن غاياتها النبيلة ومثلها العليا السامية استيلاء أقلية ناشطة جريئة على زمام السيطرة بوصفها ممثلة للشعب الذى أصبح الحاكم الشرعى الجديد بعد سقوط الحكم الملكى ، وتقلص النظام الارستقراطى ، وباسم الشعب ـ الحاكم الجديد ـ بدأت تثار الحروب ، وتخمد الحريات ، وترتكب الجرائم المنكرة ، وتثور الأهواء العارمة ، وتنبعث النزعات الجامحة التى أساءت الى سمعة الثورة ، ومكنت الكثيرين من الأدعياء والسفاحين والدجالين المغامرين من أن يظهروا على مسرح الأحداث فى صورة الابطال المنقذين والدعاة المخلصين .

وقد تعلقت بالثورة فى أول عهدها آمال ضخمة ، وأعلن الفرنسيون بدء عهد جديد فى التاريخ تتغير فيه علاقة الانسان بالمجتمع ، وتصبح فيه مصلحة المجتمع وثيقة الصلة بمصلحة أفراده ، وانتصرت الحريات انتصاراً مؤقتا على التقاليد القديمة ، ومارس الانسان قدرته على هز أسس المجتمع ، وكسر الاغلال التى تقيد حريته ، وعرف ان من حقه ان يكون صاحب السلطة ، وان ادعاء الملوك أنهم يملكون حقا الهيا وتفويضا سماويا خرافة راجت فى عهود الأوهام والخزعبلات ، وغلبة الأباطيل والأكاذيب ، وأصبحت فرنسا أرض الميعاد ، وصارت باريس أورشليم الجديدة ، التى تتجه اليها أنظار الأحرار فى شتى أنحاء العالم .

وطوى ذلك العهد ، وجاءت بعده ديكتاتورية نابليون الأول وامبراطوريته وهزيمته فى وترلو ، وفى سنة ١٨٤٨ حينما بلغت موجة الثورة الجديدة ذروتها كتب ارنست رينان بحماسة الديمقراطى الصميم فى الاشادة بالثورة الأولى يقول « يستطيع الانسان أن يسمى كل ماسبق الثورة عصر الوجود الانسانى اللامعقول كما قال روبرت أوين ، وسيأتى اليوم الذى يعد فيه فى تاريخ البشر وفى تاريخ

أمتنا بوجه خاص كأنه مقدمة عجيبة الشأن يتشبه ذلك الفصل عن تاريخ بلاد الغال الذى يسبق فى العادة تاريخ فرنسا ، والتاريخ الحقيقى لفرنسا يبدأ سنة ١٧٨٩، وكل ماسبق هذا التاريخ ليس سوى اعداد بطىء ، ولا يعنينا الا من هذه الناحية » .

ومنذ سنة ١٧٨٩ وفرنسا تعيش فى أضواء هذا العهد الجليل الشأن وظلاله، ولا يزال الفرنسيون ينظرون الى هذه الثورة على أنها رسالة لم تستوف بعد كل محتوياتها ، ولا يزال البحث يدور حول معانيها ومزاياها واتجاهاتها وأهدافها ، وفي انقضاء كل نصف قرن بعد حدوثها يومض شعاعها ، وتعاود الاشتعال جذوتها كما حدث سنة ١٨٤٨ وسنة ١٨٩٨ وسنة ١٩٣٨ .

حياة ميشليه وافكاره :

وقد حاول الكثيرون من المؤرخين والشعراء والباحثين الاجتماعيين تفسير رسالة الثورة الفرنسية منذ حدوثها حتى العصر الحاضر ، والمعروف أنه من أشد هؤلاء المؤرخين والباحثين حماسة لرسالة الثورة الفرنسية واكبارا لشأنها واخلاصا لها المؤرخ الفرنسى الكبير جول ميشليه

وكان الثالوث الذى يؤمن به ، ويبشر بدعوته ، ويعيش من أجله، هو « الشعب والثورة وفرنسا »، وكان كل عنصر من عناصر هذا الثالوث قوى الصلة بنشأته وملابسات حياته ، فقد ولد فى سنة ١٧٩٨ في عهد الجمهورية الفرنسية الأولى، وكان ميلاده في مدينة باريس مدينة الثورة التى نشأت فيها الجمهوريات الثلاث وسرت منها الأشعة الى سائر انحاء فرنسا وأرجاء أوروبا والعالم جميعه ، وكان من صميم الشعب ، وكان فخره بذلك يفوق فخر سلالة الارستقراطيين بحسبهم الوضاح ، وجاههم العريض ، وثرواتهم الضخمة، وضياعهم الموروثة، وكان طوال حياته يشعر بانه ابن الثورة، وسليل الشعب ، ومن مواليد باريس ، وقد وقف حياته على خدمة هذه العناصر الثلاثة ، وتناول التاريخ بهذه الروح ، وحاول ان يستنهض همة امته ، ويهز مشاعرها ، ويذكرها بخطورة رسالتها وأهميتها ، وقد كتب بعد ان تجاوز السبعين من عمره فى مقدمة المجلدات الكثيرة لكتابه « تاريخ فرنسا » يا فرنسا العزيزة التى عشت معها ، والتى أتركها الآن آسفا أشد الأسف ، فكم من ساعات حافلة بالحب والنبل والجد أمضيناها معا، ولقد عملت من أجلك ، وكنت ما انفك رائحا وغاديا وباحثا ومنقبا لأكتب ، ولقد أمضيت اليوم تلو اليوم ، وبذلت كل ما فى وسعى وكل ما املك ، وربما أكثر مما أملك ، واذا كان من اللازم يا فرنسا العزيزة لردك الى الحياة ان اعبر مرات عدة نهر الموتى ، وأعيد عبوره ، فانى سأجد الراحة فى ذلك ، وأكون شاكرا لك ، وأشد ما يخالج نفسى من الأسى ان على أن أفارقك الآن » .

وكان لأبيه حانوت صغير للطباعة قضى عليه اخماد نابليون لحرية النشر ، وقد مكنه طموح والديه ولمعان ذكائه من الحصول على مكان فى مدرسة ممتازة ، وكان يساعد أترابه من أبناء الاثرياء حتى لا يتعرض لتعاليهم عليه واحتقارهم له لما كان يبدو عليه من مظاهر الفقر وسوء التغذية ، وقد بذل جهدا جبارا ليثبت جدارته ، ويوطد مكانته ، وعانى قسوة الفقر سنوات طويلة، وحينما بلغ السادسة بعد العشرين من سنه حدثت له ثلاثة أحداث كان لها تأثير حاسم فى حياته ،

ففي سنة ١٨٢٤ تزوج زوجته الأولى التي ظل معها حتى توفيت بعد خمس عشرة سنة ، ولقي ادجار كينيه Edgar Quinet — ابن أحد أثرياء الطبقة المتوسطة — وكان يصغره بخمس سنوات ونشأت بينهما صداقة أساسها التقارب الفكري دامت طوال حياتهما دون ان تكدر سماءها الصافية أي سحابة من سحب الخلاف أو الفتور ، وقد كشف كل منهما مفكرا لم يكن معروفا عند عامة المثقفين والقراء في فرنسا ، وهذان المفكران هما فيكو Vico وهردر Herder ، وقد كان لكشف كل منهما تأثير كبير في اتجاه تفكيره وموقفه بوجه خاص من التاريخ .

وقد قام ميشليه بترجمة كتاب فيكو عن « العلم الجديد » من اللغة الايطالية الى الفرنسية ، كما قام صديقه الأثير كينيه بنقل كتاب هردر « أفكار عن فلسفة تاريخ الانسانية » من اللغة الالمانية الى اللغة الفرنسية ، وقد زاد هذان الكتابان أهمية التاريخ في نظر الشابين وكان لهما أثر بعد في توحيد تفكيرهما سواء في التاريخ أو في غيره من مجالات البحث ونواحي التفكير ، وقد عرف ميشليه من فيكو أهمية مواقف التحول في تطور الحضارات ، وما يصاحبها من الأزمات ، وقيمة الاساطير والرموز في التاريخ باعتبارها من القوى الدافعة في حركاته ، كما تأثر بأفكار هردر عن روح الجماعات والروح القومية لكل أمة من الأمم باعتبارها مصدر حياتها الفكرية ، وبلغ من تأثير هذه الأفكار في نفسه ان جعلته يحب فرنسا كما يحب الانسان انسانا حيا ، ويعتبر تاريخها تسجيلا لتطورها الاخلاقي ، وصار هو وصديقه كينيه يحلمان بفرنسا الجديدة ، وبقرب قدوم بشرية أسمى وأسعد حالا وأعز مكانة ، ولم تفارقهما هذه الأحلام حتى بعد أن مرا بكثير من التجارب القاسية ، وتقدمت بهما السن .

وكان كينيه شديد التدين ، وقد تأثر في ذلك بوالدته البروتستانتية ، وقد جعلته جديته الاخلاقية يميل الى طرائق التفكير الألمانية ، وحينما قرأ هردر أول ما قرأه كان ذلك في ترجمة انجليزية ، ولما اجتذبه تفكير هردر مال الى معرفة خلفيته الفكرية ، فذهب الى هايدلبرج ، وعرف هناك الكثير عن الثقافة الالمانية ، واتجاهات التفكير الالماني ، وقضى سنوات كثيرة في جنوب المانيا وقد نوه بالتفكير الالماني واعجابه الشديد به في المقدمة التي صدر بها ترجمته لكتاب هردر واعترف بانه « مدين بكل شيء لهيدلبرج » وقد أعدت حماسته لألمانيا صديقه ميشليه ، فصار مثله يحب المانيا ، ويعجب بها ، وبقي على هذا الاعجاب طوال حياته ، ونظرته الى التاريخ تبين فرط تأثره بالتفكير الرومانتيكي الالماني وعلم الباحثين من المؤرخين الالمان وبخاصة جاكوب جريم المعروف ببحوثه العميقة في القصص والاساطير والرموز والتقاليد .

ولم يكن ميشليه وكينيه منفردين في اعجابهما بالتفكير الالماني والادب الالماني ، فقد كان يشاركهما في ذلك كثيرون من المفكرين الفرنسيين البارزين ، فقد تغيرت فرنسا تغيرا كبيرا عن الحالة التي كانت عليها في القرن الثامن عشر ، فقد كان ذلك القرن عصر سريان فكرة الحرية والأفكار العالمية ، وكانت الثقافة الفرنسية في ذلك العهد كثيرة الاحتكاك بالثقافة الانجليزية ، وبرغم الحرب التي كانت تنشب بين فرنسا وانجلترا كان المثقفون الفرنسيون يسمون بأنفسهم فوق النعرات القومية ، والمنافسات الدولية ، ويؤمنون بفكرة الحرية والتقدم ، وحينما جاءت الثورة الفرنسية حل محل النزعة العالمية

العاطفة القومية ، وصار المثقفون يشتركون في المنافسات القومية ، وقد كانت فرنسا لمدة قرون صاحبة المكانة الاولى بين الدول الاوروبية ، وكانت القدوة في التقدم الحضاري والرقي الاجتماعي ، ولكنها وجدت نفسها متخلفة عن انجلترا في القوة الحربية ، والثراء المادي ، وحينما أرادت الثورة الفرنسية ان تؤكد سيادة فرنسا في أوروبا وجدت انجلترا تأخذ عليها الطرق ، وتعترض تقدم جيوشها ، ونسى الفرنسيون موقعة ليبزج ، ولم تبق في ذاكرتهم سوى هزيمة وترلو ، وظهرت بريطانيا للفرنسيين في مظهر العدو الحاقد والمنافس الخطير ، وظهر في خلال ذلك كتاب مدام دي ستايل عن المانيا وقد صور الالمان للفرنسيين قوما من الشعراء الحالمين والفلاسفة والمفكرين المسالمين يعيشون في مدن هادئة جميلة ، وليس لهم مطامع في السلطة والتوسع ولا غايات عملية ، وأحب المثقفون الفرنسيون المانيا ، وأعجبوا بادبها وفلسفتها ، وأخذ فكتور كوزان يلقي محاضرات في السوربون عن الفلاسفة الالمان المشبان المتحمسين للفكر الالماني ، وقد اهدى اليه كينيه ترجمته لكتاب هردر عن فلسفة التاريخ ، وكتب فيكتور هيجو يقول « ان فرنسا والمانيا هما أوروبا ، والمانيا القلب وفرنسا الرأس » .

وقد كانت فرنسا بعد وترلو قد نال منها الضعف والاعياء ، وقد كان للحروب النابليونية في أوروبا أقوى تأثير في ايقاظ الشعور القومي واثارة حب الحرية ، وكان للقوانين التي أدخلها نابليون في بعض تلك الدول والانظمة الادارية التي سنها ردود فعل محمودة الأثر ، والمانيا وايطاليا واسبانيا وروسيا مدينة الى حد كبير بيقظتها لغزوات نابليون ، ولكن حكم نابليون في الوقت نفسه كان نكبة على فرنسا ، فقد اتم ما بدأه عهد الارهاب ، وأعلى شأن الديكتاتورية الديمقراطية والتركيز الاداري ، وأخمد الحرية ، وقدم للفرنسيين بدلا منها الفتوح والانتصارات الحربية ، ومنذ سنة **١٧٩٣** صار معنى الديمقراطية عند الفرنسيين الدفاع عن الوطن ، وتحقيق المجد الحربي ، أو كما قال كينيه « فقدت الحرية في ثنايا طلب المجد » وسنة **١٨١٥** تولى المجد ، ولكن الحرية لم تعد ، وبدأت أسطورة نابليون بطل الديمقراطية ، وانه محرر الأمم والداعي الى الوحدة الاوروبية ، وبدت وترلو لغلاة القوميين في صورة هزيمة للروح الانسانية والقضاء على امال تحرير الانسانية العام .

وحينما حدثت ثورة يوليو سنة **١٨٣٠** بدأ ان الاسطورة النابليونية ستتحقق ، وثارت بولندة على روسيا ، وحاولت ايطاليا الخلاص من نير النمساويين ، وأراد البلجيكيون الخلاص من سلطة الهولنديين ، وفي هذه الظروف بدأ ميشليه يكتب كتابه « مقدمة للتاريخ العام » وظهر الكتاب في السنة التالية وكان هذا الكتاب ثمرة دراسة لفيكو وهردر وهو يتضمن تفسيرا لتقدم التاريخ ، وظهور فرنسا فيه في مظهر الملاح البارع في سفينة الانسانية وكان التاريخ العام في رأيه مقدمة لتاريخ فرنسا ، وبدا التاريخ لميشليه في صورة نمو الصراع بين الحرية الانسانية والقدرية التي تفرضها الطبيعه والتقاليد ، ورأى ميشليه ان أكثر القارات انسانية ونصيبا من الحرية وانعتاقا من القدرية هي القارة الأوربية ، وان فرنسا أوفر الامم نصيباً من الروح الأوروبية ، فقد استطاعت ان تغالب العقبات الطبيعة والتقليدية وان توجد في ولايات مختلفة منوعة ومن سلالات وطبقات متباينة أمة موحدة ، متغلبة بذلك على كل العوائق الطبيعية والتقليدية ،

وأساس ذلك كله الامتزاج الحر ، والحياة الدائبة الناشطة ، واستخلص ميشليه من ذلك ان فرنسا ستكون بذلك اهلا لان تجمع الأمم في ظل اتحاد مستنير ، وقد تطلعت عبقرية فرنسا الاجتماعية الى المساواة في الحرية ، وهو مثل أعلى بلغته فرنسا لأنها قاومت الخلافات الناشئة عن تباين السلالات واختلاف الاجواء ، ولانها تميل الى العمل لا الى الغزو ، وتطلب المساواة لنفسها وللبشر جميعا ، وقد حاولت روما تحرير العالم عن طريق المسيحية، وايجاد قانون عام يخضع له الجميع ، وقامت فرنسا بهذه الرسالة في العصر الوسيط والعصر الحديث وقد أدركت فرنسا الثورة ان الحرية بدون المساواة تكون ناقصة ، وقد أوجدت اللغة الفرنسية والأدب الفرنسي في القرن السابع عشر والقرن الثامن عشر وحدة ثقافية في أوروبا ، وثورة يوليو ستعيد الى أوروبا الحرية والديمقراطية ، وهكذا نظر ميشليه الى الماضي في أثناء ثورة يوليو ، وكان يود ان تتعاون فرنسا مع ايطاليا واسبانيا — وهما شقيقتاها اللاتينيتان — لتحقيق رسالتها التاريخية وكان يشعر في الوقت نفسه بعطف شديد نحو المانيا ، وكان يقدر لانجلترا فتحها السبل للحرية السياسية ، ولكنه لم يكن راضيا عن انجلترا المعاصرة له لغلبة نظام الطبقات عليها وشيوع النزعة الصناعية المادية ، وقد منعته كراهيته لبريطانيا من ان يقدر تغلب البريطانيين على المعوقات الطبيعية التي كانت تحف بجزيرتهم ولا تمكنهم من استصلاح أرضها ، وجهادهم حتى صاروا سادة البحار وفي طليعة الأمم التجارية والصناعية ، كان ميشليه لا يرى في انجلترا سوى الخصم اللدود لفرنسا ، وقد استمر النزاع بينها وبين فرنسا ثمانية قرون ، واضطرت فرنسا في عهده ان تسلم بتفوق انجلترا ، ولم يستطع ميشليه ان يغتفر ذلك للأنجليز !

وقضى حكم لويس فيلب على الآمال التي بعثتها ثورة يوليو ، ولم تستجب فرنسا لدعوة ميشليه وأصدقائه لتقود أوروبا في الكفاح من أجل الحرية، وتخلت عن بولندة وتركتها للطغيان الروسي ، ولكن ميشليه اهتدى حينذاك لرسالته وهي ان يستنهض همة فرنسا وشعبها لفهم رسالتها ، وقام بذلك في المحاضرات التي كان يلقيها وفي كتبه التي شرع في تأليفها • وفي سنة ١٨٣١ بدأ يكتب كتابه « تاريخ فرنسا » وظهر منه مجلدان سنة ١٨٣٣ وظهر الجزء الأخير سنة ١٨٧٤ التي توفي فيها ، وفي المقدمة التي كتبها سنة ١٨٦٩ قال وهو يستعيد ذكرى السنوات الطويلة التي قضاها في تأليف الكتاب « لقد خطرت لي فكرة تأليف هذا الكتاب الذي قضيت اربعين سنة في كتابته في لحظة واحدة على ضوء يوليو ، ففي تلك الأيام التي لا تبرح الذاكرة انبثق فجأة ضوء عظيم ورأيت فرنسا » • ولم يحاول ميشليه في هذا الكتاب ان يتناول تاريخ فرنسا بالتحليل وانما عمل على ان يعرضه في صورة حية تعرض مشاهده وتوضح أحداثه ، ويرى بعض النقاد البارزين ان هذا الكتاب أعظم كتب التاريخ القومي •

وفي سنة ١٨٣٨ استدعى الى الكوليج دي فرانس — وهي المعهد الشهير الذي أوجده فرنسيس الأول — ليشغل كرسي التاريخ والأخلاق ، وكان المقصود بهذا الكرسي بحث تاريخ الأفكار ، ولكن ميشليه رأى ان يكون معنى ذلك ، ان يدرس التاريخ وأن يثير في الوقت نفسه الحاسة الأخلاقية في نفوس الشبان الفرنسيين ، وسرعان ما حول

الكرسى الى منبر للتبشير بآرائه ، وفى سنة ١٨٤٢ انضم اليه فى الحملة الاخلاقية التى كان يقوم بها صديقه ادجار كينيه الذى تسلم كرسى آداب أوروبا الجنوبية والشاعر البولندى آدم ميكوكز الذى عين استاذا للحضارة السلافية واللغات السلافية ، ولم يكتف الاساتذة الثلاثة بالقاء المحاضرات فى المواد التى اسندت اليهم الكراسى الخاصة بها ، وانما عملوا على ان يتناولوا مشكلات العصر الأخلاقية ، وأخذوا يدعون فى محاضراتهم الى تحرير الانسانية من التقاليد العتيقة ويعلنون اقتراب عهد تسود فيه الحرية والتقدم والعدالة ، وكان من الذين ساعدوا على رواج أمثال هذه الافكار ومهد لها القس الكاثوليكى لامينيه ، وكان من كلمات هذا القس الذى أثار غضب البابا واستوجب العقوبة من الكنيسة قوله « ان مايريده الشعب يريده الله ، لان الشعب يطلب العدالة ، وهى النظام الأبدى الخالد ، وقضية الشعب قضية مقدسة ، وهى قضية الله ، وستنتصر ، ولكن لكى يكون انتصارها أسرع وبأقل ما يمكن من الاضطرابات غير الجديةومعاناة المشقة التى لا لزوم لها فان على الشعب ان يضم صفوفه ويحكم روابطه الاخلاقية التى ينبع منها اخلاص الفرد للجميع وتضحيته بنفسه » .

وفى تلك السنوات الحافلة بالآمال المتوثبة والحماسة المشتعلة تغير موقف ميشليه من المسيحية ، وقد عنى بتأثير الدين والكنيسة حينما تناول تاريخ فرنسا فى العصر الوسيط ورأى ان الدين ساعد على قيام الثورة الفرنسية والتمهيد لها ، واتم فى سنة ١٨٤٣ الجزء الأخير من تاريخه للعصر الوسيط حتى موت لويس الحادى عشر ، ولما أراد ان يستأنف المضى فى اتمام الكتاب ويؤرخ لعهد الاحياء فى سنة ١٨٥٥ وجد أن وجهة نظره قد تغيرت ، ففى السنوات السابقة لهذا التاريخ كان قد وقف جهاده على الدفاع عن الشعب والمطالبة بحقوقه وحرياته مخالفا بذلك اتجاهات رجال الدين فى ذلك العهد ، وقد دفعه هذا الى الشروع فى كتابه تاريخ الثورة الفرنسية وقد بدأ كتابته سنة ١٨٤٦ ، كما ألف فى تلك الفترة كتابه عن تاريخ الجزويت وكتابه « الشعب » الذى ضمنه فلسفته التاريخية .

وفى تلك السنوات التى هيأت الافكار لثورة سنة ١٨٤٨ كان ميشليه وكينيه وميكوكز يحاضرون فى الكوليج دى فرانس ، ويثيرون الحماسة ، ويدعون الى العمل من أجل الحرية والتقدم ، واتسع الخلاف بينهم وبين طائفة الجزويت ، وأخذت الثورة الفرنسية تبدو لميشليه انها كانت تهدف الى الحرية السياسية والخلاص من فساد الكنيسة ومساندتها للنظام الملكى الفاسد وطغيان الارستقراطية المؤيدة للملك والطبقية ، وظل صديقه كينيه على تقديره العالى للسيد المسيح واعتقاده انه قد تمثلت فيه قوى الانسانية الروحية ، ولكنه صار يرى ان البشر هم حاملو الرسالة المقدسة ، وقد برر ابتعاد الثورة الفرنسية عن رجال الدين فى أول أمرها لانهم وقفوا منها موقف المعارضة والخلاف ، وامتدح الثورة لانها حررت فرنسا من سيطرة الاكليروس .

وكانت الثورة الفرنسية فى رأى ميشليه مطلع عهد جديد ، ولكنها كانت حقيقة متمشية مع سير الحضارة الحديثة وتقدم الاستنارة ومسيرة القوى الديمقراطية فى القرون الثلاثة التى سبقتها ، وقد جعلت الثورة الفرنسية الانسان صانع مستقبله وأرجعت السلطة الى الشعب وما أسماه روسو « الارادة العامة » .

وقد أهدى ميشليه كتابه « الشعب » الى ادجار كينيه ، ولخص فى مقدمته تجاربه الشخصية ومثله العليا السياسية ، وعرض الكتاب بوصفه خلاصة لحياته الفكرية ، وقال فى المقدمة « هذا الكتاب أكثر من كتاب ، انه أنا نفسى ، وهو من أجل ذلك وثيق العلاقة بك ، وقلبانا ينبضان معا ، وهو تآلف جميل يمكن ان يثير الدهشة ، ولكن أليس هو تآلفا طبيعيا ؟ ولقد تولدت أعمالنا المختلفة من أصل واحد حى ، وهو حبنا لفرنسا وفكرة الوطن، وقد أخرجت هذا الكتاب من أعماق نفسى وصميم حياتى ومضمر قلبى ، وهو ثمرة التجربة لا نتيجة الدراسة ، ولكى أعرف حياة الشعب وأعماله وشقاءه وآلامه كان حسبى الرجوع الى ذكرياتى الخاصة ، لأننى أنا نفسى يا صديقى قد عملت بيدى، وانا استحق باكثر من معنى واحد ان اسمى بحق باسم الرجل الحديث وهو « العامل » ، ومنذ طفولتى احتفظت بطابع العمل وبالحياة الشاقة الناصبة ، وقد ظللت واحدا من أفراد الشعب » .

وكانت نبضات قلب جيل الجماعات الصاعدة تختلج فى رسالة ميشليه ، وكان ميشليه يشعر دائما بانه أحد أفراد الشعب ، وحقيقة ان نصيبه من التعليم والثقافة وسعة الاطلاع كان أكثر من نصيب الكثيرين من أفراد الشعب ، ولكنه كان يعتقد انه كلما عظم نصيب الانسان من التعليم والثقافة ازدادت تبعته ، وكثرت الواجبات عليه نحو بلاده ونحو الانسانية لأن المعرفة تزيده خبرة، وتبصره بطبيعة الأسباب والمسببات ، وتكشف له العيوب ونواحى النقص ، وتكشف له طرائق الاصلاح والنهوض ، وقد أكب على تأليف كتابه لانه كان يعتقد ان الأزمة مقبلة ، وان الحاجة ماسة الى توحيد الصفوف وجعل فرنسا مدركة لرسالتها،

ولكنه بدلا من ان يرى الحب المتبادل والتعاون المشترك رأى الفرقة والتباعد ، وكتب يقول « ان نصيبى من الأسى أكثر من نصيب غيرى حينما أدير الطرف حولى فأرى اتساع شقة الخلاف بين الرجال والطبقات ، أنا الذى احتويهم جميعا فى نفسى . ان موقف فرنسا فى غاية الحرج مما يجعلنى لا أتردد ، ولست أغالى بقوة الكتاب ، ولكن كتابته كانت مسألة لازمة واجبة لا مسألة اظهار مقدرة ، وأرى فرنسا تنحدر فى المزالق ساعة بعد ساعة ، ونحن نتعادى ونتخاصم والوطن متجه الى الهاوية ، وهذا الدمار سخيف ومزر ، ونحن وحدنا سببه، فمن عنده الأدب الذى لا يزال مسيطرا على الفكر الاوروبى ؟ ونحن عندنا ذلك برغم ضعفنا ، ومن يملك جيشا ؟ نحن وحدنا ، وانجلترا وروسيا عملاقان ضعيفان منتفخان يخدعان أوروبا ، وهما امبراطوريتان عظيمتان ولكن شعبيهما ضعيفان ! فلتوحد فرنسا صفوفها لحظة واحدة ، انها تصبح حينذاك قوية مثل العالم بأجمعه » .

وأخذ يحفز فرنسا على الاستعداد لمواجهة الأيام العصيبة القادمة ويقول لأمته « سيدركنا الهلاك اذا لم تتحد ، فيا ايها الفرنسيون من كل الطبقات والأحزاب ليس لكم من صديق فى هذه الدنيا سوى فرنسا » .

وذكرهم ان منذ خمسين سنة مضت حاربت الامم فرنسا لان فرنسا أرادت أن تنقذ العالم وتخلصه ، والأمم لم تنس بعد أن فرنسا كانت الثورة ، ويقول : « ان فرنسا ستحمل دائما فى مواجهة أوروبا ذلك الاسم الذى لا يصفح عنه وهو الثورة وهو اسمها الحقيقى الخالد » .

وكان الكتاب جميعه دعوة للاتحاد وضم الصفوف ، وتوجيه فرنسا الى التماس القوة في الشعب ، واستيحاء رسالتها من الثورة ، وقد بدأ الكتاب بتحليل مؤثر لحالة فرنسا الاجتماعية والاخلاقية في عهد لويس فيلب ، ووجد ان المجتمع الفرنسي يكبل الطبقات جميعها بالقيود ، وأنه لا يحررها من القيود سوى اشتراكها في حب فرنسا والاخلاص لرسالتها ، واتهم المجتمع الفرنسي بانه برغم الثورة ظل منقسما الى طبقات ، وقد وجد ميشليه ان مصدر القوةالحقيقية كامن في صميم الشعب وان مصدر الضعف هي الطبقة البورجوازية التي أصبحت فريسة للانانية والمؤثرات الاجنبية ، وأظهر في الكتاب ان فرنسا في ذلك الوقت ينقصها الشعور بالعظمة ، وانها تخشى الاضطلاع برسالتها البطولية ، وكان ميشليه يقيس قوة الرجال والطبقات بمقدار شعورها القومي ، واخلاصها لوطنها ، وكان يرى الشعور القومي مثل الحرارة في طبقات الارض ، فكلما هبطنا الى الاعماق كان هذا الشعور أقوى وأنقى من الشوائب ، وحب الفقراء لفرنسا أقوى من حب الأثرياء ، وأفراد الشعب العاديون أسلم غريزة ، وأخلص نية ، وأشد اقبالا على العمل، وهم النبع الذي تستمد منه الطبقة المتعلمة القوة وتجديد الشباب والفتوة ، وكان ميشليه شديد العطف على هؤلاء المكافحين الفقراء البسطاء ، وقد شمل عطفه الشعوب المتخلفة حضاريا ، وحتى الحيوانات العجماوات ، ومن كلماته في هذا الكتاب « لقد وجهت كلمات في هذا الكتاب لهؤلاء الذين لا يستطيعون ان يعرفوا هل لهم حق في هذا العالم، وكل هؤلاء الذين يتألمون ويشقون في صمت ، وكل من يتطلع الى النهوض والتسامي في الحياة، هؤلاء جميعا هم قومي ، فليتقدموا معي » .

والثورة الفرنسية في رأى ميشليه جعلت الفرنسيين يتعمقون معنى القومية ، ويدركون قيمة الوطن ، والتضحية من أجله ، وأن استعادة مجد فرنسا واسترداد مكانتها وابراءها من أدواء التقاطع والتخاذل متوقف على اعادة الروح التي اشتملت على فرنسا في عهد الثورة ، وقد قدمت فرنسا للأمم في عهد الثورة انجيل المساواة ، وقد كانت روما باعثة النور في عهود الظلام وفرنسا هي باعثة الاستنارة في العهد الحديث ، وكانت ايطاليا عظيمة في القرون السالفة ، والمانيا وبريطانيا عظيمتان في العصر الحديث ولكن فرنسا وحدها كان لها تاريخ كامل في العهدين . وأوضح ميشليه في كتابه أن مأساة فرنسا سببها انها لم تحتفظ بيقينها في الثورة الى النهاية ، ولم تستطع الابقاء على روح الثورة عن طريق التعليم والتربية ، وتجديدالتعليم يقتضي تجديد الايمان بفرنسا وبالثورة .

وحينما بدأ ميشليه يكتب كتابه عن الثورة كانت قدرته الفنية والفكرية قد بلغت الذروة ، وبطل الثورة الفرنسية في رأيه هو الشعب والشعب وحده ، والثورة في رأيه كانت من عمل قوى مجتمعة ، ومن يسميهم مؤرخون آخرون القادة والأبطال كانوا في رأى ميشليه مسوقين مدفوعين أكثر منهم قادة وموجهين . وميشليه في نظرته للأحداث التاريخية يخالف رأى توماس كارلايل الذي كان يرى ان الابطال يقومون بالأدوار الرئيسية في الحركات التاريخية ، وشدة عطف ميشليه على الشعب جعلته يجد مسوغا لكل الأعمال التي قامت بها الجماعات في مستهل الثورة ، وفي الوقت الذي أبى فيه ان يدين الشعب بالتورط في بعض الاخطاء واقتراف بعض الجرائم المستنكرة لم

ينكر تبعة الافراد الذين تصدوا للقيادة وأخطاء الأقلية التى أرادت ان تؤكد وجودها وتفرض على الثورة نفسها ، ولم يعتقد ان جرائم التاريخ ـ مثل الارهاب والطغيان ـ يمكن الاعتذار عنها باعتبارها نتيجة محتومة للضرورة التاريخية • ومأساةالثورة فى رأيه سببها ان الشعب لم يكن عنده من القوة ما يكفى لتحقيق المثل الاعلى للثورة ، وراح ضحية للمهيجين الطامعين ، وللشيع والاحزاب ومطامع قواد الجيوش الذين قادوا الثورة الى فظائع الارهاب وطغيان الامبراطورية ، ورفض الفكرة التى يقول بها الساسة ورجال الدولة وهى ان « مصلحة الدولة » تسوغ فى بعض الظروف الركون الى العنف والانحراف عن جادة الانسانية والعدالة ، وعنده ان اتباع مثل هذه الاساليب يضعف الاحساس بالحق فى نفوس الناس ، ويهبط بمستواهم الاخلاقى ، ولا يجنى الوطن أى خير من وراء ذلك فى المدى البعيد ، وحينما دبرت الملكية الفرنسية مذبحة سان برتلميو ، وألغت مرسوم نانت ، هدمت البناء الاخلاقى ، وأضعفت قوة فرنسا ، وقد أفاد طرد الهيجونوت بريطانيا وهولندة وبروسيا ، وكذلك عهد الارهاب فى الثورة الفرنسية لم يكن له ما يبرره ، ولم ينقذ فرنسا بل قضى على الثورة ، وعند ميشليه ان الثورة قد دفعت ثمنا غاليا لعهد الارهاب ، وهذا الثمن هو تحولها الى الحكم الامبراطورى ، ربما اكتسبت أرضا ، ووسعت رقعتها ، ولكنها فقدت أرواح رجالها ، وقد جعلها هذا التاريخ المخضب بالدم المسفوك تميل الى عبادة العنف والانتصار ، والعنف شىء غير القوة الحقيقية الصادقة والانتصار الذى يجلب فى النهاية الهزيمة •

وقد بدلت الحروب وعهد الارهاب طبيعة الثورة الفرنسية ، فقد كانت الثورة فى بادىء أمرها من عمل الشعب برمته ، لا من عمل طبقة من الطبقات أو جماعة من الساسة ومحترفى عمل الثورات ، ولكن حينما نشبت الحرب توجه الشجعان المقاديم الى ساحة القتال ، فهان على أقلية ناشطة اغتصاب السلطة ، وانتهكت حرمة القوانين المقدسة ، والقوانين البشرية ، وأخافت مجلس الأمة وأرهبت الشعب وصدعت وحدته ، لان الثورة بدأت بتوثيق روابط الاخاء بين طبقات الأمة وأفراد الشعب •

وفى باكورة ربيع سنة ١٨٤٨ استيقظت الآمال القديمة وملأ الابتهاج النفوس ، فقد بدا ان الشعب سيسرع فى الاستجابة لدعوة ميشليه التى بسطها فى كتابه « الشعب » وأن احلامه ستتحقق ، والثورة فى هذه المرة لن تتحول الى حرب وحكومة شرطة ، وستأتى بالحرية والتقدم الاجتماعى للشعب جميعه ، ولكن سرعان ما خابت تلك الآمال المترامية ، ولم يكن هناك وحدة ولا تناسق ، وجددت أيام الحرب الداخلية الدامية فى يونيو مخاوف الثورة الأولى القديمة ، واشتبكت الطبقات والأحزاب فى صراع مهلك ، وثارت الاحقاد والمنافسات ، وتصادمت الايديولوجيات المختلفة ، وكما حدث فى الثورة القديمة قاد الارهاب الى الحكم الامبراطورى ، واختير لويس نابليون رئيسا بأغلبية ساحقة من أصوات الشعب ، وظهر نظام أكليروسى جديد ، وألغيت الحريات السياسية والمدنية ، وتم ذلك كله باسم الديمقراطية والتقدم الاجتماعى الذى تطلبه الجماهير ، ورأى ميشليه وادجار كينيه امالهما العريضة فى فرنسا وفى الانسانية تنهار وتسير الامور على خلاف ما كانا يقدران •

وقد أخفقت ثورة ١٨٤٨ فى فرنسا كما أخفقت

فى المانيا ، وكانت الديمقراطية الزائفة فى فرنسا وحكم نابليون الثالث من وجوه كثيرة يشبهان اتجاهات بسمارك فى المانيا ، ولكن كان هناك فرق فى مسلك المثقفين وقادة الفكر فى الأمتين الفرنسية والألمانية، ففى ألمانيا حنى القادة والزعماء رؤوسهم لبسمارك ، وقبلوا وعوده بالرخاء وتزايد القوة القومية ، واتفق الشعب مع المثقفين فى الاعجاب بالبطل وتقدير أعماله ، اما فى فرنسا بعد ١٨٤٨ فان معارضة سياسة نابليون الثالث وأساليبه فى الحكم كان معناها نفى الكثيرين من الأحرار أو ارغامهم على ان يلتزموا الصمت، ولم يتيسر خداع المستنيرين بالنجاح الظاهرى وأحلام العظمة القومية ، فقد أصروا على المطالبة بالحرية الشخصية والمثل العليا الانسانية ، وقد أدى سلوك المانيا الى نتائج السياسة البسماركية التى تمخضت عنها الحرب الكبرى الاولى ، اما فى فرنسا فقد جاءت الجمهورية الثالثة بعد سقوط امبراطورية نابليون الثالث ، وكانت الروح الجمهورية المتمكنة من نفوس الفرنسيين تنقذهم فى الأزمات، وتجنبهم التورط فى المهالك .

وعمل ميشليه فى سنواته الاخيرة فى الكوليج دى فرانس على انماء الحرية ، وتقوية الروابط بين طبقات الأمة ، وندد بأوهام العظمة التى تخدع الجماعات ، والتى مكنت رجالا من طراز روبسبير ونابليون من السيطرة ، ورأى ان التربية القائمة على العلم ومبادىء العدالة يمكن ان تعين الانسان فى طريق التقدم ، وقد بدأت الحكومة بعد ثورة ١٨٤٨ فى ابعاد عدد كبير من المدرسين وفرضت رقابة صارمة على الباقين ، وفى ابريل سنة ١٨٥٢ . فصل ميشليه وكينيه من منصبيهما فى الكوليج دى فرانس ، ولما رفض ميشليه ان يقسم يمين الولاء لنابلون الثالث فقد كذلك منصبه فى الأرشيف القومى ، وعاودته الأزمات التى تعرض لها فى مستهل حياته ، ولكنه ظل محتفظا بايمانه بالحرية، وثقته برسالة فرنسا ، ونفى كينيه ولكنه ظل يجاهد من أجل تحرير فرنسا والانسانية .

ولم يقف تطور تفكير ميشليه ، وظل يراقب تيار الأحداث ويفيد من التجارب ، وفى سنة ١٨٤٧ أرسل هو وادجار كينيه عريضة الى ملك بروسيا يسألانه فيها ان يمنح الثائرين البولنديين العفو العام ، وكانوا قد صدر عليهم حكم بالاعدام، وكتبا فى هذه العريضة يقولان « ان فرنسا وألمانيا يكادان يختنقان بين عملاقين ، احدهما يسيطر على البحار، والآخر يسيطر فى الأرض ، وهما روسيا وانجلترا ، وليس اضمن لسلامة فرنسا والمانيا فى المستقبل من اتحادهما ، وسيكون من سوء الحظ ان تراق دماء بين فرنسا وألمانيا » . وقد ظل ميشليه حتى أواخر أيامه يعتبر بريطانيا العدو الراصد لفرنسا ، وكان يقول « ان حرب الحروب ومعركة المعارك هى مابين بريطانيا وفرنسا والباقى ليس سوى أحداث طارئة » . وكان يرى مع آخرين فى الثلاثينات والأربعينات من القرن التاسع عشر ان انجلترا سيمزق وحدتها القلق الاجتماعى، ويقضى على تجارتها مذهب حرية التجارة، ولم يكن معجبا بالعبقرية الانجليزية ، وكان يراها عبقرية سلبية ، فهوبز الفيلسوف البريطانى كان فى رأيه يعلم الناس الحقد والعداء ، ولوك كان فيلسوفا نفعيا ، وثورة سنة ١٦٨٨ الانجليزية ليست بشىء اذا قورنت بالثورة الفرنسية ، وقد أسفرت عن انتصار الطبقة الارستقراطية لا انتصار الشعب ، وقد أكبر منتسكيه وفولتير شأن انجلترا لأنهما نظرا اليها فى ضوء الأفكار الفرنسية ، ولا يمكن ان يجد الفرنسيون فى انجلترا شيئا يتخذونه قدوة

ومثلا ، وانجلترا غنية ولكنها ليست لها فكرة ولا روح ، وعظمتها جدباء عقيم . وخفت فى سنواته الاخيرة حدة تحامله على الانجليز ، وزادت كراهته لنابليون وما خلفه لفرنسا من تركة ، وأحداث سنة ١٨٤٨ وسنة ١٨٥١ جعلته يقدر النظام البرلمانى البريطانى ، وأعلن انه يقف فى صف بريطانيا فى مقاومتها لفيليب الثانى وضد لويس الرابع عشر وضد نابليون نفسه ، وضد الطغاة جميعهم الذين عرفتهم بريطانيا ، وقد بذل جهدا فى شيخوخته لمنع وقوع الحرب بين ألمانيا وفرنسا ، واشترك مع كارل ماركس ولوى بلان وغيرهما من الثوريين الذين كانوا يعيشون فى المنفى فى توجيه رسالة الى الشعب الفرنسي والشعب الألمانى ختموها بكلمات من المارسلييز تقول « الشعوب اخوة لنا ، والطغاة هم الأعداء » .

وقد مات ميشليه سنة ١٨٧٤ ، ولكن تأثيره فى توطيد الأسس الديمقراطية فى فرنسا وحمل الفرنسيين على اكبار الحرية والتعلق بها لا يزال باقيا ، ولا تزال مؤلفاته التاريخية موضع اعجاب المؤرخين والنقاد سواء من الوجهة الفنية أو من ناحية وفرة المعلومات ، وسعة المعرفة .

كتاب « الثورة الفرنسية » :

يقول المؤرخ العلامة جوش فى كتابه عن المؤرخين فى القرن التاسع عشر « اذا استثنينا كتاب كارلايل عن الثورة الفرنسية فان كتاب ميشليه يقدم لنا ألمع صورة رسمت لاعظم حادثة فى التاريخ الحديث » . ويقول المؤرخ أولار : « انه اصدق تاريخ للثورة وان لم يكن اشدها دقة » ، ومن أول صفحة فى الكتاب الى الصفحة الأخيرة فان البطل الوحيد هو الشعب ، وقد أحب دانتون لانه كان يراه أصدق ممثل لروح الشعب ، وكان يرى أن مارا قد حاول ان يقلد روسو تقليدا قرديا ، وأن روبسبير كان دعيا متحذلقا مستحقا للاحتقار ، وأن مذابح سبتمبر كانت وصمة للشرف القومى، وأن الملكة ارتكبت جريمة الخيانة لانها استدعت الاجنبى ، وأن الملك لويس السادس عشر لم يكن صادقا فى وعوده ، وموته ولو انه خطأ ليس جريمة . وقد أفاد ميشليه فى تأليف الكتاب من الوثائق التى كانت محفوظة منذ عهد الثورة فى « دار البلدية Hotel de Ville والتى احترقت حينما دمرت الدار فى سنة ١٨٧١ . كما استمد معلومات عن الثورة من أبيه وغيره من الذين حضروا عهدها ورأوا احداثها بأعينهم ، ويعد الكتاب أقوى دفاع عن المثل العليا للثورة ، وقد تأثر ميشليه فى نظرته الى التاريخ باراء فيكو ، ومن أقواله « لقد ولدت من فرجيل وفيكو » . وقد تعلم من فيكو ان الأفكار المقدسية تبدو خلال الأعمال البشرية ، وان العناية الالهية تبدو فى عالم الأمم والقوميات ، وان العقيدة الدينية فى كل مجتمع تتجاوب مع آدابه وقوانينه وتاريخه بوجه عام ، وقد ظهر كتابه فى سبعة مجلدات بين سنة ١٨٤٧ وسنة ١٨٥٣ .

ويقول ميشليه فى تصديره لكتابه عن الثورة « فى كل عام حينما أغادر الكرسى الخاص بى فى ختام الأعمال الاكاديمية ، وحينما أرى تفرق شمل الجماعة – وهى جيل آخر لن أراه بعد ذلك – يمعن عقلى فى تفكير داخلى ويستغرق فى التأملات حتى يضل السبيل ، ويقبل الصيف ، ويقل عدد سكان المدينة ، وتهدأ ضجة الشوارع ، وأبدأ فى مناجاة عقلى وأسائل نفسى عن نشأتى وتعليمى وتربيتى وتاريخ حياتى ، ومفسرها صاحب القوة الشاملة – وهو روح الثورة ، انها تعى معرفة

يجهلها الآخرون ، وهي تحوى سر كل الأزمنة الخالية ، وفيها صارت فرنسا شاعرة بنفسها ، وحينما يبدو أننا نسينا قيمتنا في ساعة ضعف فعلينا أن نعود الى ذكرى الثورة لنسترد أنفسنا ، وهنا الشعلة التي لا تنطفيء ولغز الحياة العميق الذى يتوهج فى داخل نفوسنا .

ان الثورة تعيش فى نفوسنا – فى أرواحنا ، وليس لها نصب خارجى ، فيا روح فرنسا الحية أين أجدك ان لم أجدك فى نفسى ؟ لقد توالت الحكومات وكانت معادية لروح الثورة ، ولكنها كانت بذلك تعمل على ايقاظ العصور البعيدة الذاهبة ، وقد أرادوا دفنك ، فلم ذلك ؟ أنت وحدك الحية ... انك حية وانى أشعر دائما بصدق هذه الحقيقة فى هذه الفترة من العام حينما يتوقف القائى المحاضرات ، ويبدو العمل متعبا ... ولقد مددت أيتها الثورة يديك للجميع ، وقدمت لهم الكأس ليشربوا نخب السلام بين الأمم ، وحتى حينما تقدم الخصوم ليطعنوك غدرا وخيانة فان السيف الذى جردته فرنسا كان سيف السلام ، كان يهدف الى انقاذ الأمم ومنحها السلام الحق – وهو الحرية .

« ويبدو اليوم ان طبيعة الثورة الخيرة المسالمة النزاعة الى الحب نوع من المغالطة ، فأصل الثورة مجهول وطبيعتها قد أسيء فهمها وتقاليدها حفها الغموض والابهام فى وقت جد قصير ! » .

« والمجهود العنيف الرهيب الذى اضطرت الى بذله لكى لا تغلب على أمرها فى المعركة التى نشبت بينها وبين العالم المؤتمر بها قد خاله الجيل الناسى المكفوف البصر انه هو الثورة ، ومن هذا الخلط تولد شر بعيد الأعراق من الصعب ابراء الشعب من دائه ، وهو عبادة القوة » .

وهكذا فى هذا التصدير يمضى ميشليه فى أسلوبه البليغ الرائع التصوير مبينا كيف تحالفت قوى الظلام على اخماد الضوء الذى انبعث من فرنسا فى عهد الثورة وهو يرى ان أصدقاء الثورة انفسهم قد ساعدوا اعداءها على اطفاء شعلتها ، ويبدى هذه الملاحظة عن الثورة : « وشيء يجب ان يذكر لكل انسان ومن السهل اليسير اثباته وهو أن الفترة التى كانت ثورتنا فيها انسانية خيرة كان ممثلو الثورة الشعب نفسه ، الشعب برمته ، كل انسان ، والفترة التى ساد فيها العنف ، فترة الأعمال الدموية التى ساق الخطر الثورة اليها ، كان الممثلون قلة قليلة ، وعددا من الرجال جد قليل ، وهذا ما وجدته ثابتا محققا بالأدلة والشواهد المكتوبة أو حسب ما سمعته من أفواه الرجال المتقدمين فى السن . وسيجعل التاريخ الذى أكتبه شيئاً آخر واضحا وهو ان الشعب بوجه عام كان فى الثورة خيرا من القادة » .

ويؤكد ميشليه وجهة نظره هذه بقوله « لقد وجدت كذلك ان هؤلاء المتحدثين البلغاء والخطباء المصاقع الذين كانوا يعبرون عن أفكار الجماعات يحسبهم الناس فى العادة الممثلين العاملين فى الثورة ، وهذا خطأ ، والواقع أنهم كانوا يتلقون الدافع أكثر مما كانوا هم انفسهم يدفعون الناس الى العمل ، وقد كان العامل الرئيسى هو الشعب نفسه ، ولكى أضع الشعب فى مكانه الحقيقى اضطررت ان أعيد الى مكانها المناسب الدمى الطامحة التى حركها الشعب والتى لا يزال الناس يتوهمون أنها كانت وراء الانجازات الخفية التى تمت فى التاريخ ، ولا بد ان أعترف بان هذا المشهد أثار دهشتى ، فقد كنت كلما تعمقت فى

الدراسة يظهر لى أن قادة الأحزاب هؤلاء الابطال الظاهرين على المسرح لم يكونوا السابقين الى معرفة ما ينبغي ان يصنع ، ولا الذين يعدون له العدة ، وانهم لم يكونوا بوجه خاص أول من يتقدم باقتراحات هامة » .

ويتحدث ميشليه عن الملك لويس السادس عشر فيقول « كان أمل الشعب لا يزال معلقا بالنظام الملكي ، وراود الأمل تيرجو كما راود فولتير ، فهذا الملك الشاب المسكين الذى ولد في ظروف سيئة نشأ وتربى فى احوال غير مؤاتية قد يرغب فى ان يسلك سلوكا حسنا ، وقد جاهد وحاول ولكنه سحب وأبعد ، فالتقاليد التي أحاطت بميلاده وتربيته وحتى فضائله الموروثة كانت تدفع به الى هاوية الهلاك ، وقد التمس رجال أمناء له الأعذار ، ورجال أمناء آخرون أدانوه ، وكان الرياء والميل الى التحفظ الشديد والكتمان ومجافاة الصراحة من عيوبه ، ولم يكن هذا عجيبا من غير شك ، فقد كان تلميذا لطائفة الجزويت ، والجريمة الأخيرة التي ساقته الى الموت هى استغاثته بالاجانب ، ومع هذه العيوب جميعها فان علينا ان لا ننسى أنه كان مخلصا فى معاداته للنمساويين وكراهته للانجليز ، وقد تحمس بحق لتقوية الاسطول الفرنسي وأوجد شيربورج على مسافة ثمانية عشر فرسخا من بورتزماوث ، وساعد على ان يشطر انجلترا شطرين أحدهما يقاوم الآخر ، والدمعة التى أراقها كرنو وهو يضع توقيعه على الأمر باعدامه تظل محفوظة له في التاريخ ، وحتى العدالة وهى تصدر حكمها عليه تصدره وهى باكية » .

ويقول ميشليه في حديثه عن انتخابات سنة ١٧٨٩ « كانت دعوة مجلس طبقات الأمة للانعقاد فى سنة ١٧٨٩ هي عهد ميلاد الشعب ، فقد دعيت طبقات الأمة جميعها لممارسة حقوقها ، وكانت تستطيع على الأقل ان تكتب شكواها ، وتعرض رغباتها ، وتختار نوابها ، وكانت بعض الحكومات الجمهورية الصغيرة قد قبلت اشراك اعضائها جميعهم فى الحقوق السياسية ، ولكن لم يحدث مثل ذلك قط في مملكة عظيمة وامبراطورية مثل فرنسا ، وكان ذلك شيئا جديدا ، وليس ذلك في سجلات فرنسا وحدها ، وانما في سجلات العالم جميعه ، ولذلك حينما سمعت لأول مرة عبر التاريخ كلمات ان الجميع سيجتمعون للانتخاب وانهم سيعرضون شكواهم كان لذلك هزة في النفوس كوقع الزلازل ، وشعرت الجماعات بقوة هذه الهزة حتى في المناطق الخفية التي يخيم عليها الصمت والتي لم يكن من المنتظر ان يكون لهذه الحركة صدى في أرجائها ، وتقدمت المدن جميعها للانتخاب ، ولم يقتصر على المدن الصالحة كما كان الحال في مجلس طبقات الامة القديم ، واشتركت في الانتخاب مناطق الأقاليم لا المدن وحدها ، والمؤكد ان خمسة ملايين من الرجال اشتركت في الانتخابات ، وهو منظر عجيب مثير للدهشة ! اذ نرى شعبا برمته خارجا من أكنان الغموض وخفايا العدم الى الوجود ، وكان الشعب حتى ذلك الحين لائذا بالصمت ، ولكنه فجأة وجد له صوتاً ، ووجد طلب المساواة لذلك طريقه الى الشعب ، وكان التفاوت بين طبقات الشعب عظيما فى كل ناحية ، فى المكانة وفى العبادة وفى الحالة المعنوية وفى الأفكار ، وقد سلبهم الحكم الملكى حقوقهم البلدية وتلك التربية التي يستمدونها من الأعمال المتصلة بالمجتمع ، ورجال الاكليروس والمدرسون

الذين فرضوا عليهم لم يعلموهم شيئاً منذ زمن طويل ، بل قد عملوا كل ما فى جهدهم ليجعلوهم أغبياء خرساً بكماً فاقدى الاحساس ، ويقال لهم الآن « انهضوا وسيروا وتكلموا »! واقد اعتمدوا، اعتمدوا الى حد كبير على عجزهم وعدم كفايتهم، وكان نيكر أول من نطق بكلمة مجلس طبقات الأمة البرلمان الذى دعاهم الى الاجتماع والوزراء الذين قدموا لهم الوعود - ونيكر الذى تولى دعوتهم - كانوا جميعا يعتقدون ان الشعب عاجز عن القيام بأى عمل ذى بال فى ذلك المجلس ، وكان كل ما هدفوا اليه من وراء ذلك هو أن هذه الدعوة الجادة لجماعة لا حياة لها ستوقع الرعب فى قلوب الطبقات صاحبة الامتيازات ، ولم يكن البلاط وهو فى طليعة أصحاب الامتيازات ويحمل من الاوزار أكثر مما يحمله غيره - لم يكن له رغبة فى اعلان الحرب عليهم ، وكان غاية أمله انه يرغم رجال الاكليروس والنبلاء على ان يسهموا فى ملء الخزينة العامة التى كانوا يملأون منها خزائنهم ، وماذا كانت تريد الملكة (مارى انطوانيت) ؟ انها وقد سلمت قيادها لمحدثى النعمة ، وأصبحت هدفا لهجو الأشراف ، وتزايد احتقار شأنها والاستخفاف بها ، كانت وحدها تريد ان تنتقم لنفسها انتقاما هينا من هؤلاء الشاتمين لها المنتقصين لقدرها ، وذلك باخافتهم وارغامهم على الالتفاف حول الملك ، وقد رأت أخاها جوزيف فى الأراضى المنخفضة يضع المدن الصغيرة فى مواجهة المدن الأكبر ومواجهة الأساقفة والأعيان ، وهذا المثل من غير شك جعلها لا تعارض أفكار نيكر ، ووافقت على ان يكون عدد نواب الطبقة الثالثة - طبقة الشعب - عددا من النواب يماثل عدد نواب الاكليروس والاشراف مجتمعين ، وماذا كان يريد نيكر ؟ كان يريد شيئين - أن يدعى الكثير ويعمل القليل ، ومن أجل المظهر ورغبة فى التفاخر ولكى يشتهر الأمر فى الصالونات ويمتدح وتشيد به الهيئات العامة ، كان من اللازم أن يضاعف فى كرم واسماح عدد نواب الطبقة الثالثة ... وكان من المعروف ان الطبقة الثالثة ... لن تكون سوى طبقة واحدة من الطبقات الثلاث وانها سيكون لها صوت واحد فى مواجهة صوتين وعلاوة على ذلك فان الطبقة الثالثة كانت فى كل وقت شديدة التواضع وكثيرة الاحترام ، وانها أكثر تهذيبا من ان تختار لتمثيلها رجالا من طبقتها ، وكانت فى الغالب تختار نوابا عنها من الأشراف، ومعظمهم من الأشراف الحديثى العهد، وغيرهم من رجال مجلس النواب الذين كانوا يفخرون بان يضموا اصواتهم الى اصوات النبلاء ضد مصالح الطبقة الثالثة التى اختارتهم.. ونيكر من غير شك كان يريد بدعوة سكان الريف والقرى الى الانتخابات ان يفعل شيئاً سياسيا ، فبقدر ما كانت الروح الديمقراطية مستيقظة فى المدن كان سكان الريف متأثرين بالأشراف ورجال الاكليروس وهم ملاك ثلثى الأرض فملايين من الرجال الذين جاءوا لاعطاء أصواتهم كانوا يعتمدون فى حياتهم على الطبقات صاحبة الامتيازات مثل المزارعين ومستأجرى الأرض أو مثل الذين يتأثرون بطريق غير مباشر بأتباعهم ووكلاء زراعتهم ووكلاء قضاياهم ورجال الاعمال ، وكان نيكر يعرف من سابق خبرته فى سويسرة وتاريخ المقاطعات الصغيرة بها ان التصويت العام فى أحوال خاصة يثبت مكانة الطبقة الارستقراطية ، والأشراف الذين شاورهم فى الأمر تبنوا فكرته وأرادوا أن يجعلوا خدامهم ناخبين ، ولكن نيكر لم يوافق على ذلك لأن

الانتخابات فى هذه الحالة تصبح جميعها في يد طبقة الملاك . وقد أظهرت نتيجة الانتخاب خطأ تقدير الجميع ، فالشعب برغم انه لم يكن مهيأ كل التهيئة أظهر أن غريزته سليمة ، فحينما استدعى أفراده للانتخابات وعلموا بما لهم من حقوق وجد أنه لم يبق الا شيء جد قليل ليتعلموه .. كانت الأغلبية لا تعرف القراءة ولكنها كانت تعرف كيف تتحدث ، وقد ظلت محتفظة في سلوكها نحو الأشراف بعادة احترامهم ، ولكنها مع ذلك اختارت الجديرين بتمثيلها من النواب ، وكانت حركة ضخمة منوعة لم تعد من قبل ، ولكنها مع ذلك كانت متحدة متجانسة مما يثير أعظم الدهشة !

نعم كانت موحدة متحدة ـ كانت الأمة جميعها في صف وفي الصف المقابل أصحاب الامتيازات »

ويصف ميشليه حضور ميرابو خطب الثورة الشهير الى مجلس طبقات الأمة بقوله : « كان ميرابو حاضرا ، وقد اجتذب أنظار كل انسان ، فكتلته الكثيفة من الشعر ورأسه الذي يشبه رأس الأسد وقد طبع بطابع الدمامة المتناهية كانا يثيران العجب العجاب ، بل كانا يكادان يبعثان في النفوس الخوف ، ولم يستطع انسان ان يحول عنه ناظريه، وحقيقة انه كان في الظاهر رجلا ، والآخرون لم يكونوا سوى ظلال ، ولكنه من دواعي سوء الحظ انه كان رجل عصره وطبقته ، رجلا داعراً مثل سائر رجال الطبقة العليا في أيامه ، ويضاف الى ذلك انه كان سيىء السمعة صخاباً وجريئاً في الرذيلة ، وهذا ما قضى عليه وحطم حياته، وكانت مغامراته وقصص غرامياته وعوارم أهوائه وشهواته كثيرة شائعة ، فقد كانت حادة عاصفة ، وكانت سيطرة هذه الاهواء الجامحة على نفسه غلابة قاهرة ، وطالما هبطت به الى الحضيض ، وكان فقيرا من جراء المعاملة الخشنة التي عاملته بها أسرته ، ولذلك كان يعاني البؤس لأنه اجتمعت فيه عيوب الفقراء ومساوىء الأثرياء ، وقد تعرض لطغيان الأسرة، وطغيان الدولة، والطغيان الأخلاقي الداخلي ، طغيان الأهواء ، ومن ثم لا يستطيع أحد ان يستقبل عهد الحرية بمثل الحماسة التي استقبله بها ميرابو ، ولم ييأس في وجود الحرية من تجديد روحه كما كان يقول لأصدقائه ، وقد بدأ يستعيد صباه مع فرنسا ويخلع عباءته الملوثة ، ولكن كان من اللازم ان تمتد حياته ، وفى مدخل هذه الحياة الجديدة التي فتحت له بابها برغم انه كان قوى البنية متوقد النفس قوى العواطف الا انه كان برغم ذلك قد أضعف جسمه ، فكان لون بشرة وجهه حائلا ووجنتاه غائرتين ، ولم يعبأ بذلك ! كان لا يزال يحمل رأسه الضخم شامخا ولاتزال نظرات عينيه جريئة مقتحمة، وكل انسان كان يتوقع أن يرى فيه على ما يبدو صوت فرنسا الرهيب .

ويصف ميشليه حضور الملك لويس السادس عشر الى مجلس طبقات الامة حينما بدأت بوادر الخلاف بينه وبين ممثلي الطبقة الثالثة ، فقد حضر الملك الى المجلس وألقى كلمة أخطأته فيها الحكمة السياسية وأظهرت انه أصبح آلة في يد الرجعيين من رجال البلاط ومؤيدى النظام الارستقراطي والاستبداد الملكي ، وختم الملك كلمته في المجلس بقوله « اذا كنتم لا تمضون معى في تأييد هذا المشروع المجيد فاني سأتولى منفردا النهوض بما فيه الخيرلشعبي ، وساعتبر نفسي الممثل الحقيقي له ... واني آمركم أيها السادة أن تتفرقوا في التو واللحظة ، وتعودوا في صباح الغد للحجرات

المناسبة لطبقتكم لتستأنفوا جلستكم » .

وترك الملك المجلس وتبعه الأشراف ورجال الأكليروس ، ولكن ممثلي الطبقة الثالثة ظلوا في مقاعدهم ، فجاء رئيس التشريفات وقال لرئيس المجلس في صوت خفيض « لقد سمعت ياسيدى ما أمر به الملك ! » فأجابه رئيس المجلس قائلا « لقد أرجىء الاجتماع بعد حضور الملك ، ولا أستطيع أن أفض الجلسة الا بعد المداولة » ثم التفت الى زملائه وقال : « يبدو لى ان الأمة مجتمعة لا يمكن ان تتلقى أوامر » .

وهنا خاطب ميرابو رئيس التشريفات بصوته القوى الآمر وقد علاه وقار رهيب قائلا : « لقد سمعنا الأهداف التى أوحى بها الى الملك ، وأنت يا سيدى لا يمكن ان تكون العضو الذى يوفد الى الجمعية الوطنية ، فليس لك فيها مكان ولا صوت ولا حق الكلام ، ولست الرجل الذى يذكرنا بحديثه ، فاذهب وقل لمن أرسلك اننا قد اجتمعنا هنا بارادة الشعب ولا نبرح هذا المكان الا باسنة الحراب » .

وبرغم ان كتاب ميشليه عن الثورة قد مضى على ظهوره قرن من الزمن وأخذت عليه أخطاء فى سرد كثير من الأحداث وفرط تحمس المؤلف فى بعض المواقف وشدة تعصبه لآرائه ومعتقداته فانه لا يزال من المراجع المأثورة فى تاريخ الثورة لبراعة تصويره ، وبلاغة أسلوبه ، ووفرة معلوماته ، وصدق نزعته الديمقراطية ، وشدة ايمانه بالشعب وقدرته وحكمته .

على أدهم